

عوائق تقدم الفنون الجميلة الشعبية في مصر

للاستاذ أحمد شفيق زاهر بك

الإنسان منذ بدء التاريخ يبدى ميلا ظاهرا إلى التزين والتجميل ، ورغبة واضحة في تجميل ممتلكاته . ولم يكن يكفي أن تؤدي أدوات أكله وأسلحته وسائر حاجياته أغراضها النفعية ، بل كان يعني بأن تكون هذه الأشياء مصنوعة بطريقة تشبع ميوله الجمالية . والفنون في أول شأنها لم يكن يقصد بها التسلية ومنعة النظر ، ولكنها نشأت وليدة الغريزة الفنية في الإنسان . وجاءت نتيجة طبيعية لحياته الخاصة فامتزجت بها وأصبحت جزءا منها . ولم يكن يهديه في أعماله الفنية إلا خبرته ونزعة العملية من غير أن يتأثر بنوع من التقاليد سبقه إليه غيره . على أن عقائده وأوهامه وما كان يراه من مظاهر الطبيعة التي تحيط به . وما لم يكن يدركه من أسرارها الغامضة - كل ذلك كان مصدرا للإلهام في ابتكاره المختلفة . والفنون مظهر من مظاهر تقدم الشعوب ورقبها ، منها يتبين نوع ثقافتها وحضارتها . وهو قول لا يقصد به تلك الصور والتماثيل التي يعرجها الفنان الحديث لتزين القاعات وإرضاء النزعات الحديثة المنتمية . ولكن المقصود هو تلك الفنون التي تنشأ عن أساليب الأمة في المعيشة . فالمساكن والمعابد والملابس والحاجيات هي التي تلتق صورا بتبين منه مظاهر التقدم والرقى ونوع الثقافة والتقاليد .

والفنون الشعبية هي التي تصدر عن الشعب نفسه دون أن يكون لفنون شعوب أخرى تأثير مباشر فيها . وهي تصدر منه معبرة عن مزاجه الخاص ووجهات نظره إلى الحياة تنعكس فيها عقائده الدينية وتقاليد الاجتماع ، كما يظهر فيها تأثير البيئة المحلية وما يتبع ذلك من أساليب المعيشة في شتى نواحيها . وفي الجملة هي الفنون ذات الطابع القومي التي تميز هذا الشعب أو ذلك عن غيره من الشعوب ، حتى لقد قيل إن الفنون في إقليم من الأقاليم إذا ما شابهت فنون إقليم آخر كان ذلك دليلا على أن سكان الإقليم قد انحدروا من جنس بشري واحد ، غير أن الأخذ بهذا الرأي معناه إغفال ما للعوامل التاريخية والسياسية والاقتصادية من التأثير في تكوين الفنون الشعبية وتكييفها .

ومما لا شك فيه أن الشعوب تتفاعل بعضها مع البعض الآخر بالوسائل الاقتصادية ويكون من نتيجة هذا التفاعل أن تبادل السلع وتقتبس العادات فتأثر بذلك الفنون الأصلية وتتطور تدريجا في بقاء أو في سرعة إلى فنون مختلفة يختلف قدر ما فيها من الشوائب الداخلية تبعاً لقوة المؤثر الخارجي وما لا يحصل نتيجة للتفاعلات الاقتصادية السلبية قد يأتي نتيجة لغزو حربي أو سيطرة سياسية . ويمكن للباحث أن يجد أثر هذه التفاعلات في الفنون المصرية .

وتظهر الفنون الشعبية فيما يتكره الفنان الشعبي من الأشياء التي لها صلة مباشرة بحياة الناس وطرق معيشتهم ، ومن هذه الأشياء قطع الأثاث المختلفة التي أبرز أمثلتها عندنا (الطبلية) والصندوق الخشبي المعروف ذو الألوان الهيجية الذي لا زال إخواننا في الريف يحرسون على اقتنائه ، وهو يذكركنا بالصاديق التي وجدت على قبور قدماء المصريين مما يدعو إلى الظن بأنه قطعة من الأثاث شقت طريقها إلينا هذه الآلاف من السنين .

والسلال والمراحين والمراوح التي لا زال أبناء الصعيد يصنعونها من الخوص والقش تشبه في ألونها وأشكالها ما كان يصنعه القدماء منها ، وما زالوا يصنعونها بنفس الطريقة بل يختارون لها الألوان يبينها .

وعقود الخرز الجميلة والحليات المعدنية الطريفة التي تترين بها السيدات في الوقت الحاضر تسترعى النظر لما يبعثها وبين الحليات الفرعونية من شبه واضح يجعلنا نعتقد في انحدارها إلينا من أصل قديم .

والآنية المصنوعة من الفخار ، على اختلاف أنواعها ، كالزير والقدر والبلاصي والقلة — كل هذه قد ارتبطت بالبيت المصري أجيالا متعاقبة حتى أصبحت بحق من مميزات الفن الشعبي في مصر .

وعندما نتكلم عن القفل المصرية لا ينبغي لنا أن ننسى (شبابيك القفل) فلقد وجد الفنان الشعبي فيها مجالاً للتفنن والابتكار ، وفي دار الآثار العربية مجموعة كبيرة من هذه الشبابيك بها نقوش غاية في الدقة وجمال التكوين وهي أشبه ما تكون في شكلها بقطع الدنتلا .

ومن هذه الأشياء أيضا الحصيدو الزخرفة الهندسية الملونة بالألوان الساذجة المرححة التي تطيب بها النفس وترتاح لها العين ، والحصير فراش للأرض يلائم طبيعة البلاد سهولة تنظيفه مما يعاق به من التراب ولعدم احتفاظ مادته بجمرة الجو في الصيف .

وفي الريف يقوم الفلاحات بعمل (طواق) للرجال ومناديل الرأس للسيدات يطرزنها بوحدات هندسية وغير هندسية وهي تمتاز ببساطة الفكرة وحسن التنسيق .

هذه بعض لأمثه ف أخرجته يد الفنان الشعبي لمواحه مستلزمات معيسته . على أن هناك علاوة على ذلك مناسبات قومية وتقائيد جرى عليها الناس في مواسم خاصة أتحت هي لأخرى لفنان الشعبي فرصا للإنتاج الفني ؛ ففي مولد النبي تصنع عرائس من الخلاوة وتكسي بالورق الملون وفي رمضان تستخدم فوانيس محلاة بالزجاج الملون ، فعرائس المولد من الفنون الشعبية المصرية الرائعة ، إذ أن في إنشائها تجريدا فنيا يسترعى النظر وأن في ملبمها المصنوع من الورق أنيقة ورقة وأنونة تليق بالعروس حقا وهي في جملتها تجذب النظر وتثير الشعور بالإعجاب .

أما فوانيس رمضان وكلنا يعرف الغرض الذي كانت من أجله تستعمل ففيها تفنن في الأشكال والألوان ومن منا لم يستهوه منظر مجموعة منها مضاءة في ليل حالك وهي تتأرجح فتختلط لأضواء الملونة فتبعث في النفس السرور والانتعاش .

ومن هذه المظاهر الاجتماعية رجوع الحجاج وما يتبع ذلك من إعداد واجهات المنازل لاستقبالهم ، فترى الأسد مشدودا إلى نخلة في الصحراء ، وترى الفارس شاهر سيفه ، والجل يحمل الهودج على ظهره وغير ذلك من الصور التي توحى بمعاني القوة والشهامة والنصر ، ولا يخفى ما لارتباط هذه المعاني بما يلقاه الحجاج من مشاق السفر ووعورة الطريق .

ولست أبغى من هذه العجالة أن أتكلم عن الموسيقى الشعبية ، فهي من الفنون التي لم تتأثر بالدرجة التي تأثرت بها الفنون الشعبية الأخرى نتيجة للتفاعلات التي سبق ذكرها ، ولكني أود أن أضيف إلى ما ذكرت بعض الآلات الموسيقية الشعبية (كالدربكة) الطلبة البلدية والأرغول المصنوع من القاب والربابة حجر الزاوية في مجالس الربابة المعروفة ، وكلها من صنع الفنان الشعبي ابتدعها لحاجته إليها ، فجاءت أصواتها متفقة مع طبيعة موسيقاه الشعبية .

كل هذه الأشياء التي ذكرنا وغيرها هي من مبتكرات الفنان الشعبي نفسه ، فهو لم يكن مقلدا ولكن مبتكرا يغالب الطبيعة وتغالبه ، وكيف موادها بقدر ما تطاوعه الآلات الأولية التي ابتكرها هي الأخرى ، وهو يختار لهذه المواد الأشكال والأوضاع التي تحقق أغراضه وتعبّر عن الموضوع الذي يعالجه فتخرج القطعة من بين يديه ناطقة بمختلف المعاني والعواطف ، مليئة بالأحاسيس يتجل فيها مبلغ تأثره بالفكرة . وما التجريد وما التحريف والمبالغة التي نشاهدهما في الفنون الشعبية إلا نتيجة لتغلغل الفكرة وثبات العقيدة .

والفنان الشعبي لا يقلد الطبيعة في أشكالها وأوضاعها ، بل هو يوضع المعاني ويعبر عن الوجدانات المختلفة ، فإذا استخدم الطبيعة لهذا الغرض فأنما يستخدم من عناصرها وأشكالها وأوضاعها مادة يودعها من ذكرياته وأحاسيسه المختلطة ما يعطيها حقيقة ملموسة شاخصه أمامه ؛ لذلك امتازت الفنون الشعبية بالبساطة التي جاءت نتيجة لعدم التقيد بمظاهر الأشياء الطبيعية .

كل هذه الفنون بمزاياها التي ذكرنا رغما عن اتفاقنا مع بيئتنا وعاداتنا وتقاليدها ومنزاجها عاقبت عن التقدم والاستمرار والرفق عوائق جمة ، فلقد تقدمت العلوم وكثرت الاختراعات الحديثة حتى أمكن الاستعاضة عن كثير مما كان يقوم به الفنان الشعبي بأشياء أخرى هي أسهل استعمالا وأقرب إلى تحقيق غرضه وقد تكون أكثر إمتاعا له من كل النواحي إلا الناحية الفنية . وليس معنى هذا أن كل السلع الحديثة خالية من عوامل التجميل والحساسية بالفن ولكن كثرة الإنتاج وتعدد المصانع والمراحم الاقتصادية جعلت الناحية الفنية في السلع تتضاءل إلى حد كبير أمام أصول التجارة ومستلزماتها التي لها الكسب بكل الوسائل دون

مرعاة لأى اعتبار آخر لذلك انزوى الفنان الشعبي وهزلت الفنون الشعبية وم يعد يتوارث الأبناء صناعة الآباء وانصرف الناس إلى تنقيد الفنون القديمة يشككون المآج وسن لنيل بأشكل فرعونية قديمة كقطع الزينة وأيد للنشآت ويصنعون قطعاً مبنوة من التفاهش تنقيد، لم وجد منقوشاً في قبور الفرعانة وينقشون الحاس وغير ذلك فسأت صناعات في خان التحليل أساسها تنقيد الفنون الفرعونية والتبطينة والإسلامية هي أقرب ما تكون إلى مسخ تلك الفنون منها إلى فنون شعبية .

ولقد طقت المدنية الأوروبية على البلاد المصرية بسبب سهولة المواصلات وإيفاد البعثات وغير ذلك من الأسباب وامتلات الأسواق بالواردات الأجنبية ، فأعجبنا بالأجنبي في كل شيء . وقلدناه في كل شيء . وأصبح نفر ما يباهى غيره بمبلغ ما وصل إليه من التقليد . قلدنا الأجنبي في ملبسه وفي مسكنه وفي طريقة معيشته . على الرغم مما بين جونا وجر بلادهم . وعاداتنا وعاداتهم ، من اختلافات شديدة . وسلم نفر ما أطفاله للدارس الأجنبية ينشؤونهم نشأة بعيدة عن أن تكون مصرية قومية . فلم نعد نعيد أعيادنا القومية الأهمية التي تتفق إيماننا بها ، ونحسنا لها ، ولم نعد نعتز بتقويتنا كما كان يعتزها آباؤنا الأولون . وسنا ندعو من وراء ذلك ، إلى عدم الأخذ إطلاقاً بأمايب المدنية الحديثة ، أو إلى عدم الاستمتاع بمخترعات العلم الحديث . بل إن الواجب علينا أن نعمل على كشف المواهب الفنية الدينية . وتعهدها . لكي تنمو وترتقى . حتى تكون حاجياتنا متفقه مع بيئتنا وتقائيدنا ومزاجنا وقد نصل إلى هذا الغرض بالوسائل الآتية :

أولاً — الاهتمام بالأعياد القومية والمناسبات الوطنية كما يفعل الأجانب في أعيادهم ومناسباتهم ، ولكن بطريقتنا نحن لا بطريقتهم هم . فإن الذوق لينفر من أن يحتفل بموسم شرق مصرى صميم على طراز أجنبي غرى ليس بيننا وبينه صلة ولا مسب .

ثانياً — تكوين متحف يجمع أمثلة من الفنون الشعبية التي اندثرت أو التي في طريقها إلى هذه النهاية يتردد عليه أفراد الشعب عامة ، والصناع بوجه خاص فيعملون على إحياء ما مات من تلك الفنون وعلى إنعاش ما زال منها باقياً .

ثالثاً — تعهد الفنون الشعبية . واحترامها من طبقات الخاصة والهيئات الفنية التي عليها الإشراف على الفنون .

رابعاً — القيام بدعاية واسعة النطاق لتعويد النشء الاعتراف بقوميته واحماظ لها ، حتى يقول كل مصرى بلسانه وبقلبه القول المأثور : (لولم أكن مصرى لوددت أن أكون مصرى) .

أحمد شفيق زاهر

مدير مدرسة الفنون ايجية ثانياً